﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الذاريات: 59 - 60]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

مَنْ عبدَ غير الله تعالى؛ فقد ظَلَم نفسَه؛ بوضعه عبادتَه في غير مَوْضِعها

لمّا بيَّن تعالى أنَّ مَن يضَعُ نفسه في موضع عبادة غير الله، يكونُ وضعَ الشَّيء في غير موضعه، فيكون ظالمًا، وإذا ثبت أنَّ الإنس مخلوقون للعبادة؛ فإنَّ الذين ظلموا، وحادوا عن تحقيق تلك الغاية، بعبادة غيره سبحانه، لهُم هلاكٌ مثلُ هلاك من تقدَّم، فالكافر إذا ظلَم، ووضع نفسَه في غير موضعه؛ خرج عن الانتفاعِ، فَحَسُنَ إخلاء المكان عنهُ، وحقَّ نزولُ الهلاك به[1]؛ فمن هنا أخبر الله تعالى نَبيَّه ﷺ بأنَّ الَّذين كذَّبوه، سَينالُهم قِسْطٌ ونصيبٌ ممّا نال غيرَهم مِمَّن ارتكبَ مُرْتَكِبهم، وسلك مسلكهم بعد أن أقسَم سبحانه على الصِّدق في وعيدهم، ودلَّ على ذلك بجميع قصد أحوالهم على إرادتِه، وختم بقوَّته الَّتي لا حدَّ لها[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَنُوبًا﴾: أصلُ (ذنب) يدلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ، ومنه: الذَّنَبُ، وهو مُؤَخَّرُ الدَّوابِّ؛ ولذلك سُمّيَ الأتباعُ الذُّنابى، والمَذانِبُ: مَذانِبُ التِّلاعِ، وهي مَسايلُ الماءِ فيها[3]، والذَّنوبُ: الفرس الطَّويل الذَّنَب، والدَّلو الَّتي لها ذنَب، واستعير للنَّصيب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾[4]، وهو معنى اللَّفظ في الآية، أي: نصيبًا من العذاب، وهو تمثيلٌ لهيئةِ تَساوي حظِّ الَّذين ظلموا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 197.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 450، و18/ 482.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذنب).
(4) الراغب، المفردات: (ذنب).

مِنَ العَرَبِ بحظوظِ الَّذين ظلموا من الأُمم السّالِفَةِ؛ بهيئة الَّذين يَسْتَقونَ من قليبٍ واحدٍ؛ إذ يَتَساوَوْنَ في أنصِبائهم مِنَ الماءِ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سُنَّةُ الله تعالى في إهلاكِ الظّالمين المُصِرّين على كُفْرِهم ماضيةٌ في خلقه

إذا علمتم - يا كُفّار قريشٍ - أنَّ غاية خَلْق الجنِّ والإنسِ هي عبادة الله تعالى؛ فاعلموا أنَّ مَن حاد منكم عن تلك الغاية؛ فقد ظلَم نفسه، وظلَم رسولَنا ﷺ بوضعه الأمور في غير مواضِعها، فاستوجب عقوبةً مثلَ عقوبة مَن حادوا عنها، وظَلَموا أنفسَهم، وظلموا رُسُلنا - عليهم السلام - مِن الأمم السّابقة، وثِقوا أنَّ تلك العقوبة آتيةٌ لا محالة، وإنَّما هو الأجل المؤجَّل عند الله تعالى لنزولها بالظّالمين؛ فلا تَتَحدَّوا رسولَنا ﷺ بالاستعجالِ بإنْزالِ العذابِ بِقَوْلِكُم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: 32].

واعلموا أنَّ الكافرين ينتَظِرُهم ويلٌ شديدٌ وهلاك أكيدٌ في اليوم الَّذي حدَّده الله تعالى لهلاكهم وإذْلالِهم هنا في الدُّنيا، أو هنالك في الآخرة، وقد كانَ في الدُّنيا يومَ بدر، وفي الآخرة العذابُ الكبيرُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

مَن توجَّه بعبادته إلى غير الله تعالى؛ استوجَب العذابَ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ تفريعيَّة؛ إذ تُرَتِّبُ نَيْل ظالمي أنفسهم قِسْطًا من العذاب، كالَّذي ناله أضرابُهم من كفّار الأمم السّابقة؛ بسبب عدم توجُّههم بعبادتهم إلى الله تعالى، وعدم إخلاصهم إيّاها له ﷻ وحدَه، وصرفِهم إيّاها إلى غيره سبحانه[2].

دلالةُ التَّوكيد في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾:

التَّوكيد بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.

ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ يعكِس عِظَمَ جُرم مشركي مكَّة، ومدى تَكْذيبِهم بتوعُّد الرَّسول ﷺ إيّاهم، و"لذلك فرَّع على التَّأكيد، قال: ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾؛ لأنَّهم كانوا يستعجلون بالعذابِ استهزاءً وإشعارًا بأنَّه وعدٌ مَكْذوب في الواقع، يستعجلون الله تعالى بوعيدِه"[1].

المبالغةُ في التَّكذيب تقتضي العقوبة الأكيدة

علَّة التَّعبير بالموصول (الذين):

مِن خصائص التَّعبير بالاسم الموصول (الذين) أنَّه يقتضي بعدَهُ جملةَ صِلةٍ كاملة، فَيُتيح مِن الدَّلالات الَّتي تَغيب بِغيابه ما يَعْمُر السّياقَ بالإشارات البلاغيَّة الثَّريَّة، الَّتي منها في قوله تعالى هنا: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا﴾، أي: "وهم أهلُ مكَّة وأحزابهم من الكفّار"[2]، ومن هنا فالإتيانُ في ذِكْرِهم بالموصولِ، إمّا أن يكون لتعريفِ العَهْدِ مُرادًا منه القومُ المَعْهودونَ بالشِّرك وأذى النَّبيِّ ﷺ، وإمّا أن يكونَ المَوْصولُ لتَعْريفِ الجِنسِ المفيدِ الاستغراقَ.

نيلُ الظّالمين نصيبَهم من العذاب مُسبَّبٌ عن تعدّيهم على الله ورسولِهِ

وعَدَلَ عَن تعريفهم بالاسم الظّاهر إلى الموصول أيضًا لِما في الصِّلة مِنَ الإيماء إلى سبَبِ الخَبَر وعِلَّته، وأنَّها سببُ ثُبوتِ المُسْنَد للمُسْنَدِ إليه، فيُفيد أنَّ نيلهم نصيبَهم من العذاب مُسبَّبٌ عن ظُلْمهم وتعدّيهم على الله ورسوله بالشِّرك والصَّدِّ، والكيد؛ تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

نكتةُ تقديم القيد ﴿لِلَّذِينَ﴾ على المسند إليه ﴿ذَنُوبٗا﴾:

شِدَّةُ عذاب الظّالمين، وبيانُ استحقاقهم له واختِصاصِهم به

تقديمُ الجارِّ والمجرور - المتعلِّق بالمسند المحذوفِ - ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، على المسند إليه ﴿ذَنُوبٗا﴾، يَدْعَم استحقاقَ هؤلاء المشركين ذلك الذَّنوبَ؛ استحقاقًا يكاد يختصُّ بهم؛ إذِ الاختصاصُ أحَدُ أهمِّ عطاءات التَّقديم، فكأنَّه هنا يُهدِّدُهم به؛ زيادةً في التَّحذير مِمّا هم فيه مِن ظُلْمِ النَّفس والدّين والرَّسول ﷺ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1112.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿ظَلَمُواْ﴾ ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعَةِ:

الكُفْرُ ظلمٌ، بل أشدُّ الظُّلم

التَّعبيرُ بالظُّلم في جملة الصِّلة ﴿ظَلَمُواْ﴾، يعني: وضْعَ الشَّيء في غير موضعه[1]، وأنَّ المُشْركينَ والكفّار بعِبادَتِهم غيرَ الله تعالى قَد ظلَموا، فالمقصودُ بالظُّلم هنا الكفرُ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، والتَّعبير بالظُّلم يُسْهِمُ في بيان وجه استحقاقِهم ذلكَ العذابَ، وأنَّهُ جميعُهم، وكلُّ مَن اتَّبع طريقتهم بما يُشير إليهِ إسنادُه إلى واوِ جَماعَتهم.

نكتة حَذْف مفعول الظُّلم:

جنسُ الظُّلم مجرَّمٌ، بِغَضِّ النَّظر عن تعلُّقه بمظلوم مخصوصٍ

حُذِف مفعول الظُّلم في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا﴾، والتَّقدير: ظلموا أنفسَهُم؛ وذلك بتعريضها للعذابِ الخالِد بتَكذيب الرَّسول ﷺ، والإصرارِ على الشِّرك والبَغْي والفساد[2].

ومِن لطائف حَذْفِه القصدُ إلى تعليق الحُكم بالظُّلم مطلقًا؛ لأنَّ في الظُّلم - الَّذي هو بمَعْنى الكُفر المقصودِ هُنا - ظلمُ النَّفس، وظلمُ الدّين، وظلمُ الرَّسول ﷺ، وظلمُ عبادِ الله المؤمنين، ففي حَذْفِه توفيرُ عنايةِ المُتَلَقّي على كراهيَّة جنس الظُّلم، وتعليق الحكم عليه مطلقًا، بغَضِّ النَّظر عن تعلُّقه بمظلومٍ مَخْصوصٍ، وتحذيره مِنَ الاتِّصاف بهِ، ولَو ذُكِر له مفعولٌ؛ لتعلَّق تحريمُه، وارْتَبَط بهِ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ذَنُوبٗا﴾، ونُكْتَةُ تنكيره:

القرآنُ الكريم يُخاطِب النّاس بما يعرفون

الذَّنوبُ في اللُّغة: هو الدَّلْوُ العظيمةُ، وهو السَّجْلُ أيضًا؛ إذا مُلِئَت، أو قارَبَت المِلْءَ، والذَّنوب: الدَّلو الَّذي له ذَنَبٌ[3]، و"يُقال: يومٌ ذَنوبٌ، أي: طويلُ الشَّرِّ لا ينقضي[4]، فعبَّر عن نصيبهم الَّذي قدَّره

(1) الجوهري، الصحاح: (ظلم).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 47.
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 213.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.

عليهم من ذلك بقوله: ﴿ذَنُوبًا﴾، أي: حظًّا من العذاب طويل الشَّرِّ، كأنَّه من طولِه صاحبُ ذنَبٍ[1]، وإنَّما أُريد بالذَّنوبِ في الآية الكريمة الحظُّ والنَّصيبُ، ومنه قولُ علقمةَ بنِ عبدةَ:

وفي كلِّ قومٍ قد خَبَطْتَ بنعمةٍ *** فحُقَّ لِشأسٍ مِن نَداك ذَنوبُ[2]

أي: نصيبٌ، وأصلُه: ما ذُكِر[3].

ومعنى الآية الكريمة: فإنَّ للذين ظلموا عذابًا مثل عذاب أصحابِهم، أو سبيلًا، أو دَلْوًا - ولا يُسَمّى الذَّنوب دَلوًا حتّى يكون فيه ماءٌ - أو نصيبًا[4]، فعبَّر عن النَّصيب بالذَّنوب لِشَبَهه به في أنَّه يُصَبُّ عليهم العذابُ، كما يُصَبُّ الذَّنوب، قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: 19]، وباستعمال الذَّنوب، فإنَّ القرآن الكريم يخاطب النّاس بما يعرفون.

وجهُ مناسبة الذَّنوب لسياق الآية الكريمةِ:

المناسبات القرآنيَّة دقيقةُ المنزَع

يناسب التَّعبير بالذَّنوب السّياق الشَّريفَ هنا، فكأنَّه تعالى يقول: نَصُبُّ مِن فوق رؤوسهم ذَنوبًا كذنوبِ صُبَّ فوق رؤوس أولئك، ووجهٌ آخرُ، هو أنَّ العرب يَستَقون من الآبار على النَّوْبَة ذَنوبًا فَذَنوبًا، وذلك وقتَ عَيْشِهم الطَّيِّب، فكأنَّه تعالى قال: فإنَّ للَّذين ظلموا مِن الدُّنيا وطيِّباتها ذَنوبًا - أي: مَلْأى - ولا يكون لهم في الآخرة مِن نصيبٍ، كما كان عليهِ حالُ أصحابهم، استَقَوا ذَنوبًا، وتركوها، وعلى هذا فالذَّنوب ليس بِعذابٍ ولا هَلاك، وإنَّما هو رَغدُ العَيْش[5].

ومِن وجوه المناسبة كذلكَ: أنَّ الذَّنوب يُناسب القَليب، وقد كان مَثْواهُم يَومَ بدرٍ قَليبَ بدرٍ الَّذي رُميَت فيه أشلاءُ سادَتهم[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 483.
(2) ديوان علقمة بن عبدة الفحل، ص: 29.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 557.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 375.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 197.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 32.

نكتةُ حذفِ نوع الذَّنوب:

عـذابُ الظّالمين في الآخـرة ممّا لا يُحاط به، ولا تُطيـق وصفَـه اللُّغة

حُذِف نَوْعُ الذَّنوب، ولم يُحدَّد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾، والتَّقدير: ﴿ذَنُوبًا﴾ من العذاب والنَّكال[1]، وفي حذفه إيحاءٌ بهَوْلِه وفظاعته، حتّى لَكأنَّه لا يُحاط به، ولا تَسَعُهُ مفرداتُ اللُّغة، ولا تُطيقه تراكيبُها.

بلاغةُ التَّشبيه في الآية:

ليس للظّالمين مـأمَـنٌ مـن الاستئصال إلّا بالتَّوبة

في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ "تمثيلٌ لِهَيْئَةِ تَساوي حظِّ الَّذين ظلموا من العرب بحظوظ الَّذين ظلموا من الأمم السّالفة بهيئةِ الَّذين يَسْتَقون من قَليبٍ واحد؛ إذ يَتَساوون في أنصبائهم من الماء، وهو من تشبيهِ المعقولِ بالمحسوس.

وهذا التَّمثيل قابلٌ للتَّوزيع، بأن يُشَبَّه المشركون بجماعةٍ وردت على الماءِ، وتُشَبَّه الأممُ الماضية بجماعةٍ سبَقَتهُم إلى الماء، ويُشَبَّه نصيبُ كلِّ جماعة بالدَّلْو الَّتي يأخذونها من الماء... وغرضُ التَّشبيه تسليةُ النَّبيِّ ﷺ، والمقصودُ: أن يَسمَعَهُ المشركون، فهو تعريضٌ"[2]، يُبين عن حال المشبَّه - حظِّ قريشٍ من العذاب - أتمَّ إبانة.

والغرضُ من هذا التَّشبيه أيضًا تخويفُ قريش من إمكان إنزالِ أيٍّ من ذلك العذاب بهم - مثل غرق فرعونَ وجُنْدِه، وغرق قوم نوح، وريحِ عادٍ، وصاعقةِ ثمود - وإشعارهم بأنَّهم ليسوا في مأمَنٍ منه إلّا بالتَّوبة والدُّخول في الإيمان، وطاعة الله تعالى وعبادته.

بلاغةُ الاستعارة في كلمة ﴿ذَنُوبًا﴾:

كلمة (ذنوب) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مُستعارةٌ للحظِّ والنَّصيب، استعارةً تصريحيَّة أصليَّة؛ إذ حُذِف الحظُّ والنَّصيب، وصُرِّح مكانهما بالذَّنوب؛ ذلك أنَّهم

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 813.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.

كانوا "يَتَقَسَّمون الماء، فيكون لهذا ذَنوبٌ، ولهذا ذَنوب، والمعنى: فإنَّ الَّذين ظلموا رسولَ الله ﷺ بالتَّكذيب من أهل مكَّة، لهم نَصيبٌ مِن عذاب الله تعالى مثل نصيب أصحابهم ونُظَرائهم مِن القرون"[1].

النَّظْمُ الكريم يَستعمِل عناصرَ بيئةِ مخاطَبيهِ في الإبانة عن معانيهِ

وفي التَّركيب كُلِّه استعارةٌ تمثيليَّة؛ إذ شُبِّهت حالُ تقسيم العذاب عليهم أنصبةً وأجزاءً بِحالِ استِقائِهم الماءَ مِن الآبار بالدِّلاء، كلٌّ بحسب دَوْرِه واحدًا بَعد واحد، ففيه "تمثيلُ لهيئة تساوي حظِّ الَّذين ظلموا من العرب بحُظوظ الَّذين ظلموا من الأمم السّالفة بهيئة الَّذين يَستَقونَ مِن قليبٍ واحدٍ؛ إذ يتَساوَونَ في أنْصبائهم من الماءِ"[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَصْحَابِهِمْ﴾:

مَن ارتكَبَ مُرتَكَبَ الظّالمين، وسَلَكَ مَسلَكَهُم؛ صارَ صاحِبَهم

أصْلُ مادَّة (صحب) في اللُّغة يدلُّ على مقارَنة شيءٍ ومقارَبته[3]، كما يدلُّ على الاتِّباع، والملازمة، والمعاشرة[4]، والمقصودُ بـ ﴿أَصْحَابِهِمْ﴾، في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ "مَن ارتكب مرتَكَبَهم، وسَلَك مسلَكَهُم"[5]، مِنَ المَذْكورين في السّورة قبْلًا للعِبْرَة، وهم قومُ نوحٍ، وفرعونُ وجندُه، وعادٌ، وثمودُ.

و"أُطْلِقَ على الأمم الماضيَة اسمُ وصفِ (أصحاب) الَّذين ظلموا باعتبارِ الهَيْئَةِ المشبَّهِ بها؛ إذْ هي هيئةُ جماعاتِ الوِرْدِ - أي: سُقاة الماء - يكونون مُتَصاحِبين"[6].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾:

الرِّزق ما لم يَفُرَغْ؛ لا يأتي الأجلُ

الفاء في قوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ تفريعيَّة؛ لِترتيب نَهْي كفّار قريش عن استعجالِ العذاب على تأكُّد ثبوتِ الذَّنوب لهم، وقدرته

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 407.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).
(4) الصاعدي، سعود بن عيد، الأحاديث الواردة في فضائل الصحابة: 1/ 56.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.

تعالى على إنزالِهِ بهم وإنفاذه فيهم، وبيان أنَّ كلَّ آتٍ قريب، والمعنى: "فلا يستعجلون، فإنَّ الرِّزق ما لم يَفْرَغْ؛ لا يأتي الأجل"[1]، وذلك على تأويلِ أنَّ الذَّنوب هو النَّصيب المحدَّد مِن أرزاقهم هنا في الدُّنيا.

غرضُ النَّهي في قوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾:

تحقُّق حلولِ العذابِ بالظّالمين وإن تأخَّر

النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ مستعمَلٌ في التَّهكُّم؛ إظهارًا لِغَضَب الله تعالى عليهم[2]، ففيه "تهديد ووعيد لهم بأنَّ هذا الَّذي يستعجلونه من العذاب - استخفافًا به وتكذيبًا له - هو واقعٌ بهم، ويومئذٍ لا يَجدون وليًّا ولا نصيرًا"[3]، وفي نَهْيِهم عن استعجال العذاب دلالةٌ على "أنَّهم أُخِّروا إلى يوم القيامة"[4]، والمعنى: "لا يَطْلبوا منّي أن أُعَجِّل لهم العذاب، كما في قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: 70][5]، "فإنَّ سُنَّة الله في الأمم واحدة، فكُلُّ مكذِّبٍ يَدوم على تكذيبِهِ مِن غير تَوْبة وإنابةٍ؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يقع عليه العذابُ، ولو تأخَّر عنه مدَّةً"[6].

دلالةُ التَّعبير بالاستعجال، وأثَرُ النَّهي في المضارعة:

في استعجال الكفّار العذابَ دلالةٌ على جَهْلهم بخُطورته

﴿يَسْتَعْجِلُونِ﴾، أي: فلا "يَطْلبوا أن آتيَهم به - أي: العذاب - قبل أوانه اللّاحق به، فإنَّ ذلك لا يفعله إلّا ناقص، وأنا متعالٍ عن ذلك، لا أخاف الفوتَ، ولا يلحقني عجزٌ، ولا أوصَف به، ولا بدَّ أن أوقِعه بهم في الوقتِ الَّذي قَضَيْتُ به في الأزل؛ لأنَّه أحقُّ الأوقات بِعِقابهم لِتَكامُل ذُنوبهم؛ فيا لَه مِن تهديدٍ ما أفظعَه! ووعيدٍ ما أعظمَه وأوجعَه! أمرًا لا يَدفعه دافع، ولا يَمنع مِن وقوعه مانع"[7].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 197.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 539.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 182.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 813.
(7) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 483.

وفي التَّعبير بالاستعجال هنا كنايةٌ عن جَهْلِهم بِخَطَر ما يستعجلونَ به، إنَّه هلاك الاستئصالِ الَّذي حلَّ بالأمم السّابقة، غير أنَّ رحمته ﷻ بأمَّة خليله محمَّدٍ ﷺ أجَّلت عذابَهُم الدّائم الشَّديد إلى الآخرة، وأذاقَتهُم بعضَهُ في الدُّنيا، كما حدث في يوم بدر.

وكما يؤثِّر النَّهْي في مادَّةِ الاستعجال بالسَّلب؛ يؤثِّر في صيغة المضارع بالسَّلب؛ ليصير المعنى: ابقَوا مُنْتَظِرين مترقِّبين حلولَ العذاب، وهذا تهديدٌ مخيفٌ.

نكتةُ تعليقِ فعلِ الاستعجال بالضَّمير الراجِعِ إلى الله تعالى:

طاعةُ الرَّسول ﷺ طاعةٌ لله تعالى، وعصيانُهُ عِصْيانُه

عُلِّقَ فِعْلُ الاستعجال بالضَّمير العائدِ إلى اللّه تعالى "في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، وهم إنَّما استعجلوا النَّبيَّ ﷺ؛ لإظهار أنَّ النَّبيَّ ﷺ مخبِرٌ عن اللّه تعالى؛ توبيخًا لهم وإنذارًا بالوعيد"[1].

نكتةُ حذفِ متعلِّق الاستعجالِ في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونِ﴾:

في الحذفِ توسيعٌ للمَعْنى

متعلِّقُ الاستعجال في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونِ﴾ نزولُ العذاب بهم؛ لأنَّهم قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: 77]؛ فنزل بهم يومَ بدرٍ ما حقَّق اللّه تعالى به وعدَه، وعجَّل به انتقامه[2]، أو هو يومُ القيامة، الَّذي قد وُعِدوا فيه بأنواع العذاب والنَّكال والسَّلاسل والأغلال، فلا مغيثَ لهم، ولا مُنْقِذَ مِن عذابِ اللّه تعالى[3].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾:

إنذارُ الكفّار بوعيدٍ آخرَ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ﴾ تفريعيَّة، يُرادُ بها ترتيب ما بعدها على ما قَبلها[4]، فـ "فُرِّع على وعيدهم - بالنَّهي عن الاستعجال - إنذارٌ آخرُ بالويل، أو إنشاءُ زَجْر"[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 375.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 813.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.

دلالةُ التَّعبير بالويل نكرةً:

وعيدُ الكافرين بالشَّرِّ وسوء الحالِ في المآلِ

الويل: الشَّقاء والهمُّ[1]، وهي في الأصل: كلمة تهديدٍ ووعيدٍ، وما يُذكر أنَّه وادٍ في جهنَّم لا يصحُّ[2]، والويلُ أيضًا: الشَّرُّ وسوءُ الحال، وتنكيرُه في قول الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للتَّعظيم، والكلامُ يَحتمل الإخبارَ بحصول ويلٍ، أي: عذابٍ وسوء حالٍ لهم يومَ أوعِدوا به، ويَحتمل إنشاءَ الزَّجْر والتَّعجيب من سوء حالهم في يوم أوعِدوه[3].

علَّة التَّعبير بالموصول (الذين)، وعلَّة إظهارِه:

الموصولُ يستدعي جملةَ تسُدُّ فقْرَ دلالته، فيَعْمُر السّياق، وتُثْرى التَّراكيب

مِن خصائص التَّعبير بالاسم الموصول (الذين) أنَّه يستدعي جملةَ صِلةٍ بكامل أركانها؛ لتسُدَّ فقرَ دلالته، وبذلك يُتيح الموصولُ مِن الدَّلالات الَّتي تَغيب بِغيابه ما يَعْمُر السّياقَ، ويُثري التَّركيب.

وَوُضِع الموصولُ موضعَ الضَّمير، فجاء النَّظم القرآنيُّ: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بدلَ: فويلٌ لهم؛ وذلك تسجيلًا عليهم بِما في حيِّز الصِّلة مِن الكفر، وإشعارًا بِعِلَّة الحُكم لهم بالويل[4]، وفي هذا الإظهار أيضًا "تأكيدُ الاسم السّابق - (الذين ظلموا) - تأكيدًا بالمُرادف - (الذين كفروا) - مع ما في صفة الكُفر من الإيماء إلى أنَّهم لَم يشكروا نعمةَ خالِقهم[5]، وأخفَوها، وجَحَدوها.

نكتةُ العدول عن التَّعبير بالظُّلم إلى الكفر:

الظُّلم بَريدُ الكُفر

في عدول النَّظم الكريم عن التَّعبير بالظُّلم الوارِد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا﴾، إلى التَّعبير بالكفر في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٌ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 184.

(2) رواه الترمذي في جامعه، رقم: (3164) وقال: حديث غريب، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزياداته، رقم: (6148)، ويُنظر: ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، من الحجرات إلى الحديد، ص: 181.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.

(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 214.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 32.

﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إيحاءٌ بأنَّ الظُّلم قد يقود إلى الكُفر، وأنَّ الظُّلم الأكبرَ والكفرَ يستويان في الجُرم، وأنَّ الكُفرَ ظُلمٌ والظُّلمَ كُفر.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾:

يـوم القيامة مبعَث الهموم والغموم والعذابِ الأبقى

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ للابتداء المجازيِّ، أي: لهم سوءُ حالٍ بتَرَقُّبِهم عذابًا آتيًا من اليوم الَّذي أعَدّوه[1]، ويجوزُ أن تكونَ ظرفيَّة، أي: ويلٌ لهم في يومِهم... وكذلك يَنضح من حرف الجرِّ (مِنْ) معنى السَّبَبيَّة، أي: ويلٌ لهم بِسبب حلولِه عليهم، وبه يُجازَوْنَ، ويعاقبون.

دلالةُ اليومِ في قوله: ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾:

عـذابُ الظّالمين مِـن آخـر أُمَّـة يُعجَّل بَعْضُه في الدُّنيا، ويُدَّخر لـهـم أعـظـمُه للآخرة

اليوم في قوله: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ "يومُ بدرٍ، ورُجِّح بأنَّه الأوفَقُ لِما قبله مِن حيثُ إنَّه ذَنوبٌ من العذاب الدُّنيويِّ، وقيل: يوم القيامة، ورُجِّح بِأنَّه الأنسب لِما في صدر السّورة الكريمة الآتية"[2]، و"أيًّا ما كان؛ فمَضمون هذه الجملة مُغاير لمضمون الَّتي قبلها"[3]، على أنَّه لا مانِعَ مِن إرادَةِ المعنيين معًا؛ لعدم تنافيهما، فيكون لهم نصيبٌ مِنَ العذاب في الدُّنيا، والنَّصيب الأكبَرُ الأعظَمُ في الآخرَة.

نكتةُ الإضافة في ﴿يَوْمِهِمُ﴾:

للكفّار والظّالمين يـومُ خِـزيٍ في الـدُّنـيـا، ويـومُ خلودٍ في النّار في الآخرة

أُضيفَ اليومُ إلى ضميرِ كُفّار مكَّة في قوله تعالى: ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾؛ لأنَّه خاصٌّ بهم دون المؤمنين[4]، وأنَّه مُعَيَّنٌ لِجزائهم، كما أُضيف (يوم) إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: 103]، واليوم يَصدق بيوم القيامة، ويَصدق بيوم بَدْر الَّذي كسرَ الله تعالى فيهِ شَوْكَتَهُم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1112.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 32.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 18/ 483.

ولما كان المضاف إليهِ ضميرَ الكفّار المعيَّنين - وهم كُفّار مكَّة - رجَّحَ بعضُ أهل العلْم أن يكون المرادُ مِن هذا اليوم يومًا خاصًّا بهم، وهو يوم بَدْرٍ؛ لأنَّ يوم القيامة لا يَختصُّ بهم، بل هو عامٌّ لِكفّار الأمم كلِّهم بخلاف اليوم الَّذي في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: 103]؛ لأنَّ ضمير الخطاب فيها عائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: 101][1]، وعلى ذلك فللكُفّار والظّالمين يومُ خِزيٍ في الدُّنيا، ويومُ خلودٍ في النّار في الآخرة، وكأنَّهما بهما أعرفُ، وبهما أخصُّ.

موقع قوله: ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾:

يقعُ قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ مِن التَّركيب صفةً لـ ﴿يَوْمِهِمُ﴾، وفي ذِكْرِها مزيدُ تهديدٍ وترهيب للمتوعَّدين، وهي وإن أمكن الاستغناءُ عنها بالمَوْصوف فيما لو قيل - في غير القرآن الكريم - فويل للَّذين كفروا مِن يَوْمهم، غير أنَّ الصِّفة الغنيَّة بالتَّفاصيل في قوله: ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أثْرَتِ السّياق بدلالاتٍ فاعلة في التَّرهيب، وهي وإن كانت صفةً مفردةً بمقاييس الصِّناعة غير أنَّها بِتَفاريعِها جاءت إيغالًا بديعًا.

إثـراء الـصِّـفـةِ السّياقَ بدلالاتٍ فاعلةٍ

غرضُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ يَتَّسِم بإبهام الدَّلالة وخفائها، وعدم تميُّز المقصود به مَن هو، وما هو؟ لذلك كان الموصولُ فقيرَ الدَّلالة، محتاجًا إلى ما يَسُدُّ فَقْر دلالته، فإذا جاءت جملة الصِّلة هنا: ﴿يُوعَدُونَ﴾؛ تَوَجَّهَ الموصولُ، وتحدَّدت دلالته، وتبيَّنت وِجهة الكلام، وعلى ذلك فالموصول عُنصُر تشويقٍ فاعلٌ، وهو مِن بين عناصر التَّعريف يُفسِح لِذكر عناصرَ تركيبيَّة ذاتِ دلالاتٍ مُهِمَّةٍ في سياقه؛ تتآزر على خِدْمَةِ المعنى، وتُسْهِم في تحقيق الغرضِ.

الموصولُ عنصرُ تشويقٍ بما فيه من إبهامٍ، وهوَ يهيِّئ لـدلالاتٍ لا تتأتّى بالاسم الصَّريح

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 32.

فهنا مثلًا هيَّأ الموصولُ لبناءِ الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ لغير فاعله، ولِصَوْغِه مضارعًا، ولإسناده إلى ضمير جماعة الظّالمين والكفّار، ووراء كلٍّ من ذلك إشاراتٌ مهمَّة، وما كانت تلك الإشاراتُ لِتُتاح؛ لو عُبِّر بالاسم الصَّريح، كما لو قيل في غيرِ القرآن الكريمِ: فويل للَّذين كفَروا مِن يوم القيامةِ.

دلالةُ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا:

سيأتي على الكفّار يومٌ يَتجلَّى لهم فيه تحقُّقُ الوعيد الَّذي لَم يصدِّقوه

التَّعبير بالكون الماضي في جملة الصِّلة ﴿يُوعَدُونَ﴾ يَقضي بحصول هذا الموعود حصولًا راسخًا؛ فإنَّه سيأتي عليهم يومٌ يتجلّى لهم فيه تحقُّقه، ويتذَكَّرون أنَّ هذا الَّذي حصل كان أيّام الدُّنيا وعيدًا لم يصدِّقوه، وفي ذلك من فَرْض تَصْديقِه عليهِم - مَهْما كذَّبوا به - ما فيه.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿يُوعَدُونَ﴾، ولطيفةُ بنائِهِ لغير فاعلِهِ:

عناصرُ الكون كلُّها ناقمةٌ على الكفّار، متربِّصةٌ بهم الشَّرَّ والهلاك

الوعدُ يكون في الخير والشَّرِّ، والوعيدُ في الشَّرِّ خاصَّة، فيقال: أوعدته[1]، فإذا أسقطوا الخيرَ والشَّرَّ - أي: حذفوا مفعولَ مادَّة الوعد - قالوا في الخير: المَوْعِد والعِدة، وقالوا في الشَّرِّ: الوعيد والإيعاد[2]، فالمقصود منهما في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ هو الوعيدُ والإيعادُ؛ لأنَّه واردٌ في مقام التَّهديدِ بالوَيْلِ.

وفي بناء الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ لغير فاعله إيجازٌ للعِلْم بالمُتوعِّد، وهو اللّه تعالى، وفي طيِّ ذِكر الفاعلِ إيجازٌ يوفِّر عنايةَ المتلقّي على وعْيِ الوعيد في نفسه بِقطع النَّظر عن فاعله، ويُبعد ما يُمكن أن يَشْغَلهم عن رهبةِ التَّوعُّد، فالبناء للمفعولِ يُشيرُ إلى أنَّ "المُنْكِئَ هو الإيعادُ، لا كونه مِن مُعَيَّن"[3]، وفي ذلك تضييقٌ على المتوعَّدين بالويل أيَّما تضييق.

(1) الراغب، المفردات: (وعد).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 5/ 238.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.

ويُحقِّق حذفُ الفاعل كذلكَ إطلاقَ جهاتِ الوعيد، ويوحي بأنَّ عناصر الكون كلَّها ناقمةٌ على الكفّار، متربِّصة بهم الشَّرَّ والهلاك، وتَتوعَّدهم لِخروجِهم عن غاية خَلْقهم - الَّتي هي عبادةُ الله تعالى - ومتابعتِهم أصحابَهم من كفّار الأمم السّابقة على الكفر، ممّا يُقَرِّر مرافقتهم إيّاهم في العذابِ الخالد، وكلُّ ذلك ممّا يُراكمُ الرُّعبَ والخوف على الكفّار.

نكتَةُ إسنادِ فعلِ الوعيد إلى ضمير الجماعةِ:

الكفّارُ جميعًا متورِّطون في الظُّلم والكُفْر مَهْما تفاوَتَ جُرْمُهُم فيهما

في إسنادِ فعل الوعيد إلى ضمير الجماعةِ في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ دلالةٌ على شمول الوعيدِ عمومَ الكافرين، وقطْعٌ بتورُّطهم جميعًا في الظُّلم والكفر؛ وإن تفاوَتَ جُرمهم في ذلك.

دلالةُ المضارَعَة في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾:

تجدُّدُ تَحْذيرِهم وتَهْديدهم يُشير إلى عظمَةِ العذابِ

في صَوغ الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ مضارِعًا ملاءمةٌ ومعاصَرَةٌ لزمان الدَّعوة، وهو الحياة الدُّنيا على امتدادها، فَدُعاةُ كلِّ جيل يجدِّدون دعوةَ جيلهم، وتحذيرَ ظالمي زمانِهم، فالمضارعة في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ حقيقةٌ مطابِقة لِزمان الدَّعوة واستمرارها المتجدِّد، والمتنوِّع الأساليب.

بلاغةُ ردِّ عجز السّورة الكريمة على صدرها:

القرآن الكريم كلُّه مُتَواثِقٌ متوافِقٌ

في قول الله تعالى: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ مع قوله تعالى في أوَّل السّورة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝﴾ [الذاريات: 5]، ردٌّ لعجز السّورة الكريمة على صدرها؛ ممّا يُقَرِّر أنَّ القرآن الكريم كلَّه سياقٌ مُتَواثِق العُرَى، رأى ذلك مَن رآه، وخفي عمَّن خفي عنه.

وفي ردِّ العجز هنا على الصَّدر إيذانٌ بانتهاءِ السّورة الكريمة، وذلك من براعة المَقْطَع والخَتم[1]؛ إذ انطبق آخِرُها على أوَّلها بِصدق الوعيد، وثَبت بالدَّليل القطعيِّ القَسَمُ الأكيدُ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 33.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 483.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدَّلو والذَّنوب:

الدَّلو تكون فارغة ومَلأى، والذَّنوب لا تكون إلّا ملأى؛ ولهذا سمّي النَّصيبُ ذَنوبًا، قال الشّاعر[1]:

الـدَّلـو تـكـون فـارغـةً ومَـلـأى، والذَّنوب لا تكون إلّا ملأى

إنا إذا ساجَلَنا شِرّيْبُ

لنـــا ذَنوب وله ذَنوب

فَإنْ أبَى كانَ له القَليبُ

فلولا أنَّها ملأى؛ ما كان لقوله: "لنا ذنوب وله ذنوب" معنًى[2].

(1) البيت من الرجز، ذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن، ص: 97، والبندنيجي في الثّقفية، ص: 195، والخطابي في غريب الحديث: 1/ 123.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 314.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"